المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 31-10-2007
الصفحـات : 20
العـــدد : 14373
المسلسل : 152

# ثول.. طموحات الحاضر ورؤى المستقبل

علي بوخمسين

**الملك الطموح والمفعم برؤى المستقبل يرسي تقليداً جديداً تأسيسياً، افتتاحياً، وتحولياً، لأن الجامعة الوليدة تملك نفسها وستخطو عندما تبصر النور دون عكازين**

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 31-10-2007 العـــدد : 14373
الصفحـات : 20 المسلسل : 152

* إن اكتساب المقدرات الإنتاجية وتنمية الاقتصاد والمجتمع ينبغي أن يترافق مع تطوير امكانيات ومرافق إنتاج المعرفة واكتساب المهارات البحثية، بل إن الأمر قد يصبح أكثر أهمية عندما نتذكر أن الأفكار والتصميمات تسبق التحرك وترسم مساراته ومعالمه، وإذا كانت البلاد تصبو إلى حضور هذا العالم فإن عليها فعلاً أن تتحقق من جدوى أنظمتها التعليمية وصواب نظرياتها في الإعداد والتأهيل، فبقدر ما يتعمق الإدراك بالضرورة القصوى لذلك، يصبح تجاوز الحتميات الطبيعية والتاريخية ممكناً، ويتأكد التواجد الحضاري بما يتجاوز المكان والزمان، وبذا يصبح على الطموحات الوطنية أن تتجه بالأهداف التعليمية كأداة لسياسات التنمية والترقي بوصفها هدفين حاسمين لسلامة البلاد وصيانة قيمها الروحية والإنسانية، عبر رؤية شديدة التمعن لمعطيات المرحلة التي تجتازها أسواق الطاقة التي يتوقف مستقبلنا بدرجة كبيرة على نجاعة استثمارنا لمواردها، وهي رؤية ستتجه حتماً صوب حقل الاستثمار الأعظم في مجال التنمية البشرية والارتقاء بمقدرات الإنسان، لتوطين الثروة وتذليل الصعوبات الإنمائية والبيئية.

لقد ظلت الصعوبات التي واجهت محاولات تطوير الاقتصاد وتحسين مستويات المعيشة عبر إنتاجية وطنية متصاعدة، متمثلة في نقص الخبرات إلى جوانب عوامل أخرى، وهي عوامل لم يكن من السهل التغلب عليها دون خوض مواجهات على رأسها توفير الاستثمارات الجسيمة وتخصيصها للتوسع في العملية التعليمية وتطوير أساسياتها، في غمرة حاجات ملحة تتعلق بتأمين مطالب لا تقبل التأجيل في السنوات التي أعقبت تدفق البترول، ومن ثم خلال المرحلة التي تلتها والتي شهدت إشادة البنية التحتية لاستيعاب التحديث وسط شروط تميزت بضحالة الخبرة في أحيان كثيرة، وفي أحد الجوانب فإن الصعوبة كانت مركبة في مواجهة إرث مترسخ من تقاليد العيش في بيئة قاحلة وغير حاضنة للجهد أو الابتكار، بيد أن هذا الإرث ورغم كثافته وتجذره لم يمثل قط حقيقة من حقائق الطبيعة الأزلية، ولكنه كان ومازال عائقاً ثقيلاً ألقى بظلاله على مسارات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولهذه الأسباب الموضوعية وأخرى تتعلق بتصورات التطوير والإدارة، لم يكن التعليم واكتساب المهارات البحثية والتدريب قد حظيت بالاعتراف كأساس للتقدم، وفي وقت متقدم كانت النظرة إلى تعليم المرأة تشوبها الريبة، ولم يكن ثمة وضوح في أن مصير الشعوب يجري حسمه عند حلبة التسابق لإنتاج واكتساب المعرفة، كما أن المعرفة نفسها لم تكن قد أطبقت بقبضة صلبة على زمام التاريخ الإنساني كما تفعل اليوم، حيث يبدو العالم التخيلي المركب معرفياً وتقنياً لما بعد الذرة (مثلاً) واقعاً يقتحم الحاضر ليكنس تفاصيله مستبدلاً إياه بعالم لا نهائي الأبعاد، الأهم أن الترابط بين التعليم والاقتصاد لم يكن قد

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 31-10-2007 العـــدد : 14373
الصفحـات : 20 المسلسل : 152

اكتسب الوضوح والتميز في أذهان المخططين الوطنيين، مما مارس إلى جانب ازدحام الأولويات على موارد محدودة تأثيراً سلبياً أحاق بالأهداف التعليمية وسد السبيل نحو نشوء وتطوير علاقة تبادلية بين الاقتصاد والمعرفة.

لقد كان من الواضح أن ثمة خللاً متفاقماً يعيق سعي البلاد نحو تأمين مصادر متجددة للموارد، وتحقيق مستوى من الاستمرار لمعدلات النمو وتصاعد وتائره، وبقي الكثير من الأسئلة المتعلقة بالخصائص البيئية والاجتماعية وقضايا مصيرية مثل الجفاف وندرة المياه، وأخرى متعلقة بالاقتصاد والتعقيدات الاجتماعية المتولدة عن المتغيرات المفاجئة على أنماط الحياة، ظلت مثل هذه الأسئلة معلقة، مما انعكس سلباً على الاستجابات الوطنية حيالها، حيث افتقرت إلى التصويب البحثي، فكانت مرتبكة أحياناً وباهتة النتائج في أحيان أخرى، وفي كل الحالات على ما يبدو لم تحظ بالمعرفة الموضوعية المتأتية عبر التحليل النقدي والبحث المنهجي، وكان واضحاً أن ثغرة ينبغي ردمها للوصول نحو معرفة موضوعية لمسائل تتعلق بنا وحدنا، حتى يصبح التطور وطنياً ومتناغماً في الحقائق الطبيعية والإنسانية المكونة لموقعنا الجغرافي وبنيتنا الإنسانية، كان على البلاد أن تجد حلولاً لخصوصيات صغيرة وكبيرة وكان عليها أن تعد نفسها لكي تفعل ذلك، من هنا فإن الوعي الريادي المبكر للملك عبدالله كان يستحضر ماضياً زاهياً تبوأت (دار الحكمة) مركزه، ذلك الماضي الزاخر الذي احتضنته منطقة غدت الأكثر امحالاً وقحطاً في صناعة العقول ومكاناً يلتهم الزمن فيه نفسه، وبقدرما كان ذلك الماضي يقع في صميم الفكر الرائد للملك الطموح كان عزمه صلباً لانتشاله من هاوية الأزمان السيئة التي ابتلعته بعد أن اجتاحه الركود الفكري والتبلد، حيث لا ينبغي له أن يكون جداراً للنحيب والتلوع، لكونه ماضياً يمكن استعادته إذا استعادت (دار الحكمة) وظيفتها وانتصبت ثانية قاعدة ينهض فوقها مؤشراً فاعلاً ومتفاعلاً، فما زال ادراكنا للخصائص التي طبعت تراجعنا ومدى التأثير الذي مارسه انكماش النشاط العلمي والفكري بين هذه الخصائص حياً ونابضاً، فإن النهضة ستكون ممكنة عبر استنهاض فعاليات العقول وتجديد قدرتها على إقامة علاقات التفاعل الإيجابي واستيعاب معاني المسيرة الحضارية المعاصرة، وعبر استعادة الإنسان الساعي إلى فهم العالم والاستمرار في اكتشافه ومراكمة أرصدته المعرفية في سبيل عمارة الأرض والارتقاء بنوعية الحياة.

في غمرة التحولات الحثيثة في ميادين الاقتصاد وتصاعد عملية البناء، فإن وضع حجر الأساس في جامعة الملك عبدالله كان لافتاً بما حظي به من احتفاء متوهج في أوساط الناس، كان ذلك بسبب التوصيف والإيضاحات التي أحاطت به، والتي أظهرت ترابطات الدوافع الكامنة خلفه بأسئلة المستقبل الكبرى، ومدى التحولات التي تعكسها على مستوى الفكر الاستراتيجي التي تتموقع القضية التعليمية داخله كأساس مركزي لمطالب النهضة والتقدم، مما قد يجعل من الجامعة الوليدة في ثول حدثاً فريداً في

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 31-10-2007 العـــدد : 14373
الصفحـات : 20 المسلسل : 152

مسار التنمية البشرية والاقتصادية في بلادنا، يقود التعليم العالي بصفة خاصة إلى وظيفته الحيوية الحاسمة في أنظمة المجتمعات الحديثة وفي تاريخ الحضارات بوجه عام، إن الركود الذي يرزح على صدر عالمنا العربي والإسلامي لم يشكل محرضاً كافياً لإبراز الصفة المصيرية الحاسمة لمسألة التعليم، ذلك رغم أن النتائج الباهرة لسياسات التعليم والتدريب والبحث وعلاقاتها التبادلية بالعملية الإنتاجية، تبرز أمام أعين الناس في العالمين العربي والإسلامي وتستفز عجزهم، ولكن مراكز التعليم المؤسساتية لم تكن أحد الأهداف الرئيسة في برامج الأنظمة الرسمية والحكومات، لأن الطاقات والقدرات الكامنة في كيان مؤسساتي بالمعنى التطبيقي للمصطلح، مرتبطة بمحددات شخصيته المستقلة ومجاله التفاعلي الحر، حيث يمثل غياب المؤسسة بصفتها واقعاً ذاتي النمو والتطور وبنية ذات حصانة خاضعة فقط للتوجهات الجماعية، مرتبطة بالجهد الوطني وثوابته ولكن فاعلة ومتفاعلة وفق تصوراتها واجتهادها داخل الخط العام، إن هذا الغياب يبرز في مقدمة العناصر المتشابكة وراء التخلف وارتباك المقاصد الكبرى وتفكك المواقف الجماعية داخل الوطن العربي والإسلامي.

لذا فإن الملك الطموح والمفعم برؤى المستقبل يرسي تقليداً جديداً تأسيسياً، افتتاحياً، وتحولياً، لأن الجامعة الوليدة تملك نفسها وستخطو عندما تبصر النور دون عكازين، التأسيس هنا يجسده فك الارتباط بين الجامعة وتعقيدات التمويل الرسمي، وترتقي الجامعة إلى مستوى الحدث الافتتاحي في عالم لمعت قشرة التجديث على جلدته ثم تلاشت، فلم يعرف بنية المؤسسة وقيمها التكوينية ولكنه خبر تماماً (الجهاز) الذي اغتصبها مظهراً فارغاً لكي يبدد زمنه وأزمان غيره، عبر الحرص على تسييجها في وجه ذهنية (الجهاز) والترهل الإداري وتحصينها داخل نظام متطور لن تنعم في ظلاله بموارد مستقلة فحسب، ولكنها أيضاً ستنفتح على الكفاءات العالمية، وتستقبل الحياة بحيوية فكرية متوثبة من خلال نشاطاتها الخاصة وقنوات ارتباطها بمراكز علمية متقدمة في أنحاء العالم، حيث ستتشكل انطلاقاتها الأولية داخل مضمونها المؤسساتي برعاية الملك الطموح وتعهد أرامكو أكثر الأجهزة الوطنية قرباً إلى العمل المؤسساتي بإدارة خطواتها الأولى وفق صرامة منهجية وانضباطية وتبن للتطورات التنظيمية، لكل ذلك وبسببه ينتظر للجامعة أن تولد مكاناً للإنجاز والابتكار، ومركزاً لإطلاق ديناميكيات العقل، قادرة بالدرجة الأولى على حماية نفسها من السقوط في هوة التعليم التلقيني الذي يقتنص العقل ويكبله، محافظة على كيانيتها الحرة وشخوصها المستقل، تنتج إنساناً مشاركاً صلب الترابط بأرضه وناسه حلماً وهماً. فوق هذه المنصة الراسخة التي حظيت بها جامعة الملك عبدالله في ثول، حري بها أن تطلق عقولاً نحو فضاءات لم تخترقها عقولنا بعد، حيث ستشرق من ثول ومثيلاتها ولبدات المستقبل المنشود شمس لا يهزمها ظلام، عليها أن تفعل أو تنسحب معها إلى غير رجعة.